بين يدي التّفسير

(١)

(يا أيّها النّبيّ دم على تقوى الله تعالى، واتّباع وحيه، والتّوكّل عليه)

الآيات (١-٣)

ينفرد محمّد بن عبدالله ﷺ بين النّبيّين والمرسلين بأنّ الحقّ جلّ وعلا يناديه في القرآن الكريم بإحدى صفتيه العظميين، النّبوّة والرّسالة، وذلك بالقول: ﴿يا أيّها النّبيّ﴾ ﴿يا أيّها الرّسول﴾ إنّ سائر النّبيّين والمرسلين، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه، ينادَوْن بأسمائهم، ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام وانتهاءً بعيسى عليه السّلام. تنادى الآية الكريمة الأولى المصطفى ﷺ بالقول: ﴿يا أيّها النّبيّ﴾ وتأمره بأن يدوم على تقوى الله تعالى. ونستطيع أن نفهم في حقّه عليه الصّلاة والسّلام التّقوى في أرفع معانيها بأنّها الوجه الآخر لمرتبة الإحسان، بأن تعبد الله تعالى كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك. وحينما يكون المصطفى ﷺ مأموراً بتقوى الله تعالى فإنّ أمّته عليه الصّلاة والسّلام تندرج تحت ذلك الأمر من باب الأَحْرَى والأَوْلى.

وبعد أمره عليه الصّلاة والسّلام بتقوى الله تعالى يُنْهَى عن طاعة الكافرين والمنافقين، والمراد بالكافرين كافرو العرب ويهود. والمراد بالمنافقين منافقو المدينة المنوّرة الّذين قهرهم الإسلام وغلبهم المسلمون فأبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان. وحينما لا يكون من النّبيّ ﷺ طاعةٌ للكافرين والمنافقين يكون ثمّة مخالفةٌ لهم بالطّاعة المطلقة لله تعالى. وتقرّر الآية الكريمة في التّذييل أنّ الله تعالى عليمٌ لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، حكيمٌ في أقواله وأفعاله وأحكامه وفي كلّ شيء. وكأنّ صفة العلم المتقدّمة تتمشّى مع الأمر المتقدّم في الآية الكريمة

فإنّ كليهما منحٌ وإسعاد، وكأنّ صفة الحكمة المتأخّرة تتمشّى مع النّهي المتأخّر في الآية الكريمة، فإنّ كليهما منعٌ وإبعاد.

وبعد نهي الآية الكريمة الأولى النّبيّ ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين واتّباعهم، تأمر الآية الكريمة الثّانية النّبيّ ﷺ بطاعته جلّ وعلا واتّباع ما أوحى الله تعالى إليه من قرآنٍ كريم وسنّةٍ نبويّة مطهّرة. وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله تعالى كان بما نعمل أجمعين خبيرا. وبذلك يكون الأمر باتّباع ما أوحى الله تعالى إلى حبيبه ﷺ من قرانٍ كريم وسنّةٍ نبويّة مطهّرةٍ متّجهًا إلى كلّ فرد من أفراد هذه الأمّة المحمّديّة. وقد بشّرنا المصطفى ﷺ في خطبته العصماء بحجّة الوداع بأنّا لن نضلّ أبداً ما دمنا مستمسكين بكتاب الله تعالى وبسنّة حبيبه ﷺ. إنّ الله سبحانه وتعالى خبيرٌ ببواطن الأمور، ومطّلعٌ على حقائق نوايانا وأقوالنا وأعمالنا، ومجازٍ كلّ واحدٍ منّا يوم القيامة بحقيقة نواياه وأقواله وأعماله، إن خيرًا فخير وإن شرّاً فشرّ.

والآية الكريمة الثّالثة تأمر المصطفى ﷺ بالتّوكلّ على الله تعالى وحده لا شريك له، وأمّته عليه الصّلاة والسّلام تبعٌ له في ذلك. وكفى بالله تعالى وكيلاً وحفيظا.

وحينما تكون سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة قد نزلت في فترةٍ من أشقّ القترات على المسلمين، فقد بلغت قلوبهم الحناجر مثلاً حينما جاءهم الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم وظنّوا بالله تعالى الظنون، يكون لزاماً على المسلمين التّوكّل على الله تعالى وحده لا شريك له في كلّ الظّروف وأحلكها، بعد الأخذ بالأسباب وإعداد ما استطاعوا من قوّة كما فعل المصطفى ﷺ والمسلمون.

(٢)

(ما جعل الله تعالى لرجل من قلبين يعقل بهما، وما جعل الزّوجات ألمظاهَر منهنّ أمّهات، وما جعل الأدعياء أبناء)

الآيتان (٤و٥)

أمرت الآية الثّانية من السّورة الكريمة المصطفى ﷺ بأن يتّبع ما أوحى الله تعالى إليه. والآيتان الكريمتان في القِسْم تتحدّثان في أمورٍ ثلاثةٍ تحتاج لاتّباع ما أوحى الله تعالى بشأنها. إنّ ثمّة من يزعم بأنّ ثمّة رجلاً من قريش له عقلان اثنان، يعقل بكلّ واحدٍ منهما أفضل من عقل محمّد ﷺ. وإنّ الحقّ جلّ وعلا يقول: ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه﴾ وحينما لا يكون لأيّ شخصٍ قلبان حسّيّان لا يكون ثمّة الشّخص الّذي له أكثر من عقلٍ واحدٍ يفقه به ويتدبّر. وهكذا يُقْضى على هذه الفرية.

وقد جرت عادة العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام أن يكون الظّهار طلاقاً، فإذا قال الزّوج لزوجه: أنت عليّ كظهر أمّي، حَرُمَتْ عليه. وإنّ الحقّ جلّ وعلا يقول: ﴿وما جعل أزواجكم اللّائي تظاهرون منهنّ أمّهاتكم﴾ إنّ الظّهار ليس طلاقاً وفيه الكفّارة، وإنّ الزّوجة لا تصير بالظّهار أمّاً، إنّ الأمّ هي الّتي ولدت ابنها، وإنّ الزّوجة تظلّ دائماً زوجة. وهكذا يُقْضَى على هذه الفرية أيضاً.

على أنّ أكبر الأمور الثلاثة المرغوب عنها تنزيل العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام الابن المتبنَّى منزلة الابن من الصُّلب. وهذا الأمر المرغوب عنه قضت السّورة الكريمة عليه نظرياً هنا، وعملياً بعد ذلك. لقد تقرّر في الآية الكريمة السّابعة والثلاثين أنّ ربّ العزّة والجلال هو الّذي زوّج محمّداً ﷺ زينب بنت جحش رضي الله عنها، مطلّقة متبنّاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، دليلاً على أنّ

زيداً هو ابن حارثة وليس ابن محمّد كما كان يُدْعَى من قبل، وخلافاً لعادة العرب الّتي تمنع هذا الزّواج، لأنّها تنزّل المتبنىً منزلة الابن من الصُّلب.

وبسبب أهمّيّة هذه الفرية الثّالثة هي تستأثر بأكثر الحديث. إنّ الآية الكريمة الأولى في القسم تقرّر أنّ ربّ العزّة والجلال ما جعل الأدعياء أبناء على الحقيقة. إنّ ذلك قولٌ لا يتجاوز الأفواه، وليس له رصيدٌ من الواقع، وإنّ الله تعالى يقول الحقّ فالدّعيّ ابن أبيه، والله تعالى يهدى سواء السّبيل.

والآية الكريمة الأخرى تأمر المسلمين بأن يلحقوا الأدعياء بآبائهم. إنّ ذلك أعدل عند الله تعالى. فإن لم يعلم المسلمون آباء الأدعياء فهم إخوانهم في الدّين وأصدقاؤهم وأحبابهم. وليس على المؤمنين إثمٌ فيما أخطأوا فيه بشأن نسبة الدّعيّ لأبيه بعد التّحرّى والتّقصّى، ولكنّ الإثم فيما تعمّدتم ارتكابه من خطأ بأن تنسُبوا الدّعيّ إلى غير أبيه المعروف لكم أو أن تتهاونوا في البحث والتّحرّى. وكان الله تعالى دائماً وأبداً غفوراً لمن تاب من ذنبه وأناب، رحيمًا بالمؤمنين.

(٣)

(منزلة النّبيّ ﷺ رفيعةٌ بين المؤمنين والنّبيّين، وزوجاته أمّهات المؤمنين، وأولو الأرحام أولى بالميراث)

الآيات (٦-٨)

بعد أن بيّن القسم السّابق أنّ الآباء الحقيقيين أولى بأن يُنْسَب إليهم أبناؤهم مِنْ أولئك الّذين تبنّوْهم وادّعوا أنّهم أبناؤهم ابتدأت أولى آيات القسم التّالى بالقول: ﴿النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ إنّ محمّداً ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم فينبغى أن يحبّوه عليه الصّلاة والسّلام بأكثر من حبّهم أنفسهم، وأن يكون هواهم تبعاً لما جاء به عليه الصّلاة والسّلام من ربّه عزّ وجلّ. وقد نال أزواجه عليه

الصّلاة والسّلام كبير فضل ببركة اقترانهم به عليه الصّلاة والسّلام. إنّ أزواجه عليه الصّلاة والسّلام بمنزلة الأمّهات للمؤمنين في أنّهنّ يحرم عليهم نكاحهنّ من بعد وفاته كما يحرم عليهم نكاح أمّها تهم. وهكذا يكون أمّهات المؤمنين بأمر الله تعالى بمنزلة الأمّهات الحقيقيّات في حرمة نكاحهنّ، ولا تكون الزّوجة المظاهر منها بمنزلة الأمّ الحقيقيّة بأمر الله تعالى أيضا. ولله تعالى الحجّة البالغة والحكمة الدّامغة.

وكما كان المصطفى ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم كان أولو الأرحام في مجال الميراث بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله تعالى وقرآنه المجيد كما تبيّن من آيات الميراث في سورة النّساء. إنهم أحقّ بالتّوراث لوشائج الدّم وروابط النّسب من المؤمنين والمهاجرين الّذين كانوا يتوارثون بسبب الإيمان والهجرة بعد أن آخى المصطفى ﷺ بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار. لقد كان المهاجريّ يرث الأنصاريّ والأنصاريّ يرث المهاجريّ بسبب تلك المؤاخاة القائمة على الإيمان والهجرة دون أولى الأرحام وذوى القرابات. وكما نسخ هذا القول: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ التّوارث بالإيمان والهجرة نسخ التّوارث الّذي كان جائزاً ومعمولاً به بالحِلْف والعَهْد.

ويؤذن للمؤمنين أن يفعلوا ويُسْدوا إلى أوليائهم وأصدقائهم كلّ أنواع المعروف من وصيّة وبرٍّ وصلة وما إلى ذلك. إنّ كون أولى الأرحام أولى بالتّوارث بسبب وشائج الدّم مكتوبٌ في اللّوح المحفوظ منذ الأزل. وهاهي ذى كلّ صور التوارث المؤقته تُنْسخ بالآية الكريمة وبآخر آيات سورة الأنفال المدنيّة الكريمة. وكلّ ذى حقّ في الميراث يأخذ حقه كما بيّنت آيات الميراث الثّلاث من سورة النّساء الكريمة.

والآية الكريمة التّالية تبيّن فضل المصطفى ﷺ بالقياس إلى النّبيّين فتقول: واذكر يا محمّد إذ أخذنا من النّبيّين أجمعين ميثاقهم والعهد المؤكدّ عليهم بأن يبلّغوا الرّسالة ويؤدّوا الأمانة. وهذا الميثاق أُخذ من النّبيّين أجمعين. وبعد العموم يأتي الخصوص بالنّصّ على أولى العزم الخمسة من الرّسل، وهم نوحٌ وإبراهيم

وموسى وعيسى ومحمّد عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه. واللّطيف في الأمر أنّ السّياق يبدأ بمحمّد ﷺ ثمّ يرتّبهم تأريخياً، دليلاً على أنّ محمّداً ﷺ هو زعيم أولى العزم من الرّسل. وينصّ السّياق على أنّ عيسى عليه السّلام هو ابن مريم، وبذلك يَحِقّ الحقّ، فعيسى عليه السّلام هو عبدالله تعالى وهو ابن مريم. وبالإضافة إلى إحقاق الحقّ في القول: ﴿وعيسى ابن مريم﴾ تحقّق هذه الحقيقة ظاهرة تلاؤم الأصوات. ويتجلّى ذلك حينما نقرأ ما يخصّ أولى العزم من الرّسل وفق هذا النّسق وهذه الطّريقة:

﴿ومنك ومن نوح﴾

﴿وإبراهيم وموسى﴾

﴿وعيسى ابن مريم﴾

ويؤكد السّياق أخذ الميثاق من هؤلاء الرّسل الكرام، ولكنّه الميثاق الأكيد، والعهد المؤكّد الغليظ.

ويوم القيامة يسأل الله تعالى الرّسل الكرام الصّادقين عن صدقهم في البلاغ، والأمانة في الأداء، والإخلاص في النّصيحة، تبكيتاً للكافرين المعاندين المستهزئين الّذين أعدّ الله تعالى لهم عذاباً أليما.

(٤)

(غزوة الأحزاب أو الخندق)

الآيات (٩-٢٥)

يتحوّل السّياق إلى الحديث عن غزوةٍ من أشقّ الغزوات على المصطفى ﷺ زعيم أولى العزم من الرّسل وعلى المسلمين، ألا وهي غزوة الأحزاب أو الخندق. لقد رمى المشركون، ممثّلين في قريش وغطفان، عن قوسٍ واحدة. وقد ساعد العدوَّ الخارجيّ عدوّان داخليّان هما المنافقون ويهود بنى قريظة. وبعد أن نصر الله

تعالى المؤمنين على الأحزاب المشركين نال يهود بنى قريظة العقاب الّذي يستحقّون. وكما تحدّثت آيات هذا القسم عن فئات المنافقين تحدّثت عن المؤمنين وبيّنت للمؤمنين في كلّ زمان ومكان أنّ لهم في المصطفى ﷺ أسوتَهُم الحسنة وقُدْوتهُم المثلى، في كلّ شئونهم الدّينيّة والدّنيويّة، وبخاصّةٍ في مجال الجهاد في سبيل الله تعالى. إنّ الآية الكريمة الّتي تنصّ على أنّ لنا نحنَ المسلمين أسوةً حسنةً في محمّد بن عبدالله ﷺ تجيء في أثناء الحديث عن ملابسات غزوة الأحزاب الأشقّ نفسيّاً على المصطفى ﷺ وعلى المؤمنين من سائر الغزوات.

ينادى السّياق الّذين آمنوا ويأمرهم بأن يذكروا نعمة الله تعالى عليهم إذ جاءتم جنودٌ من المشركين فأرسل الله تعالى ربحاً فيما يشبه الإعصار المدمّر، وجنوداً من الملائكة لم يرها المؤمنون. وكان الله تعالى بما يعمل المؤمنون بصيراً. وبعد الإيجاز يأتي التّفصيل. اذكروا نعمة الله تعالى عليكم إذ جاءتكم غطفان من فوقكم من المشرق، وقريش من أسفل منكم من المغرب، وإذ زاغت الأبصار، فلا تستقرّ، وبلغت القلوب الحناجر الّتي منعت القلوب الطّائرة من الخروج، وتظنّون أيّها المؤمنون بالله تعالى الظنون المختلفة. هل سننجو أم سنموت. هل سننتصر أم سننهزم. ومتى سيكون النّصر، وكيف يتحقّق وإنّ عدد المشركين يزيد عن ثلاثة أمثال المسلمين في أقلّ التّقدير. عند ذلك اختُبر المؤمنون وامْتُحِنوا، واضطربوا اضطراباً شديداً وزُلْزِلوا.

واذكروا أيّها المؤمنون نعمة الله تعالى عليكم بنصركم إذ يقول المنافقون والّذين في قلوبهم مرض التّذبذب والشّكّ ما وعدنا الله تعالى ورسوله من النصر والتّمكين لنا في الأرض إلاّ غروراً وباطلا. واذكروا نعمة الله تعالى عليكم بالنّصر إذ قالت طائفةٌ شديدة السّوء من المنافقين يا أهل يثرب من الأوس والخزرج لا مكان إقامة لكم في جبهة القتال فارجعوا إلى بيوتكم واحْذُوا حَذْوَنا في الفرار من ميدان المعركة. ويستأذن فريقٌ آخر من المنافقين، يقلّ عن السّابقين سوءاً، ويطلب من النّبيّ ﷺ الإذن بأن يعود إلى المدينة، لأنّ بيوتهم غير حصينة، ويخشون عليها

اللّصوص والأعداء. أنّ تلك البيوت حصينة وليس كما يزعم المنافقون الّذين لا يريدون إلاّ الفرار من ميدان المعركة. ولو فُرِض أنّ هؤلاء المنافقين أُذِن لهم في العودة إلى المدينةالمنوّرة ثمّ دخل الأعداء عليهم من نواحي المدينة ثمّ سئلوا الشّرك لأتوه على الفور وما تريّثوا إلاّ بمقدار إعلان الكفر والعياذ بالله. والعجيب في الأمر أنّ مِنْ بين هؤلاء الفارّين من الميدان من كان قد عاهد الله تعالى من ذى قبل بأنّه لا يفرّ من الميدان ولا يولّى الأعداء دبره. وكان عهد الله تعالى مسئولاً عنه مَنْ قطعه على نفسه.

قل يا محمّد لأولئك المنافقين الجبناء لن ينفعكم الفِرار إن فررتم من الموت حتف أنفكم أو القتل في ميدان الشّرف والرّجولة، وإذن لا تمتّعون في الحياة الدّنيا بعد الفرار إلاّ قليلاً ونزرًا يسيرا. وقل يا محمّد لهم من ذا الّذي يعصمكم من الله تعالى إن إراد بكم سوءاً، ومن الّذي يستطيع أن يلحق بكم سوءاً إذا أراد الله تعالى بكم رحمة. ولا يجدون لهم عند غير الله تعالى من يتولّى شئونهم أو ينصرهم. إنّ الله تعالى يعلم حقّ اليقين المثبّطين منكم أيّها المنافقون والقائلين لإخوانهم من الأنصار على جهة الخصوص تعالوا إلينا. وإذا كانوا مضطرّين للذّهاب إلى الميدان فإنّهم لا يأتون البأس إلاّ قليلاً ذرّاً للرّماد في العيون. إنّهم شحيحون عليكم أن يعطوكم حقوقكم وحظوظكم من الخير. فإذا جاء الخوف وحقّ القتال رأيتهم يا محمّد ينظرون إليك تدور أعينهم في كلّ جهةٍ خوفاً من الموت كدوران عين الّذي يُغْشى عليه من الموت. فإذا ذهب الخوف أحرقوكم بألسنتهم الحادّة كالسّلاح، شحيحين عليكم أن تنالوا حقّكم من الخير والغنيمة. أولئك لم يؤمنوا فأبطل الله تعالى أعمالهم الصّالحة لأنّهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى، وكان إحباط أعمالهم يسيراً على الله تعالى. يظنّ أولئك المنافقون الأحزاب لم يرجعوا من حيث أتوا. وإن يَعُدِ الأحزاب مرّةً أخرى يتمنّوا لو أنّهم في أعماق البادية مع البدو الموغلين في البداوة لبعدهم عن المدن، يسألون عن أخباركم المهمّة الجديدة، وأحوالكم الصّعبة الشّديدة. ولو كانوا معكم بالضّرورة ما قاتلوا إلاّ قليلاً

لخواء صدورهم من الإيمان.

لقد كان لكم أيّها المؤمنون أسوةٌ حسنةٌ وقدوةٌ مُثْلَى في رسول الله تعالى، لمن كان يرجو ثواب الله تعالى في الأولى والآخرة وذَكَرَ الله تعالى ذكراً كثيراً في كلّ الأوقات والأحوال. وقد كان الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين خير من اتّخذ من المصطفى ﷺ أسوةً حسنة في كلّ النّعوت، وبخاصّةٍ في مجال الصّبر والمصابرة والجهاد في سبيل الله تعالى. إنّ هؤلاء المؤمنين المثاليّين حينما رأوا جيوش الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله تعالى من الابتلاء والنّصر، وصَدَق الله تعالى وصَدَق رسوله ﷺ فيما أخبر به عن ربّه جلّ وعلا وبشّربه من النّصر على الأعداء. ولم يزد أولئك المؤمنين مجيءُ الأحزاب إلاّ إيماناً وتصديقاً لوعد الله تعالى وإذعاناً لأمر الله تعالى وتسليماً لمشيئته.

مِنْ هؤلاء المؤمنين المجاهدين في سبيل الله تعالى رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه من الاستماتة في الجهاد في سبيل الله تعالى، فمنهم من قضى نحبه، ووفى بنذره، ومات في سبيل الله تعالى، ونال الشّهادة، ومِنْهُمْ من ينتظر الوفاء بالعهد، والحصول على الموت في سبيل الله تعالى، والظّفر بالشّهادة، وما بدّلوا تبديلاً، وما نقضوا من عهد، وما نكصوا عن ورود حياض الموت.

من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه ليجزي الله تعالى الصّادقين من المؤمنين بصدقهم، ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم بهدايتهم وقبول توبتهم. إنّ الله تعالى كان غفوراً لمن أذنب، رحيماً لمن تاب وأناب.

وردّ الله تعالى الّذين كفروا من قريشٍ وغطفان بغيظهم وكربهم وغمّهم لم ينالوا خيراً من نصرٍ أو أسرٍ أو غنيمة، وكفى الله تعالى المؤمنين القتال بإرسال بعض جنوده من الرّيح العقيم وملائكة العذاب. وكان الله تعالى قويّاً قديراً على كلّ شيء، عزيزاً غالباً لأعدائه.

(٥)

(غزوة بنى قريظة)

الآيتان (٢٦و٢٧)

بعد أن هزم الله تعالى الأحزاب وحده أمر عزّ وجلّ حبيبه محمّداً ﷺ بأن يتّجه إلى بنى قريظةٍ في اليوم الّذي نصر الله تعالى فيه المؤمنين على الأحزاب. يقرّر السّياق أنّه كما ردّ الله تعالى الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً أنزل الّذين أعانوهم من أهل الكتاب وهم يهود بنى قريظة من حصونهم الّتي يمتنعون بها، وقذف في قلوبهم أشدّ الخرف والفزع والهلع، فريقاً تقتلون أيّها المؤمنون، وهم المقاتلة، وفريقاً آخر تأسِرون وهم النّساء والذّرّيّة. وأورث عزّ وجلّ المؤمنين أرض بنى قريظة بغرسها وزرعها، وديارهم بمنازلهم وحصونهم، وأموالهم سوى الأرض والدّور، وأورثهم كذلك أرضاً أخرى لليهود لم يطأوها من ذى قبل، وهى أرض خيبر، فيما يقال. وكان الله تعالى قديراً على كلّ شيء، فلا يعجزه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السّماء سبحانه.

(٦)

(زوجات النّبيّ ﷺ يخترن الله تعالى ورسوله والدّار الآخرة)

الآيات (٢٨-٣٠)

أمّهات المومنين رضوان الله تعالى عليهنّ عبّرن أحسن تعبير عن معنى قول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة السّادسة من هذه السّورة الكريمة: ﴿النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ وذلك حينما آثرن رضا الله تعالى ورضا رسوله ﷺ ونعيم الجنّة المقيم على متاع الدّنيا الزّائل. إنّ الحقّ جلّ وعلا حينما أمر حبيبه ﷺ أن

يخيّر نساءه اللّاتي أردن النّفقة الّتي ليست عنده عليه الصّلاة والسّلام بين الطّلاق وأخذ متعة المطلّقة ونيل متاع الحياة الدّنيا الزّائل، وبين نيل رضا الله تعالى ورضا رسوله ﷺ ونعيم الجنّة الآجل، اخترن رضا الله تعالى ورضا رسوله ﷺ والدّار الآخرة. لقد كافأ الحقّ جلّ وعلا أمّهات المؤمنين بأن قصره عليه الصّلاة والسّلام عليهنّ فلا يحلّ له النّساء من بعد ولا أن يستبدل زوجةً بأخرى إلاّ ملك اليمين. وقد أعدّ الله تعالى لأمّهات المؤمنين المحسنات أجراً عظيماً في الآخرة.

وكما كان لأمّهات المومنين الأجر العظيم لإحسانهنّ الفعليّ، كان في المقابل إيماءٌ إلى أنّه لو كان منهنّ على سبيل الافتراض، وهذا ممتنع، نشوزٌ أو بذاءة لسان، فإنّ عقابهنّ مضاعف، بسبب رفيع منزلتهنّ. وكان ذلك العقاب أو العذاب يسيراً على الله تعالى. ومعروفٌ أنّ أمّهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ كنّ الغاية في تقوى الله تعالى لذا فإنّ أجرهنّ مضاعفٌ بفضل الله تعالى ومنّه.

التّفسير

(١)

(ياأيّها النّبيّ دم على تقوى الله تعالى، واتّباع وحيه، والتّوكلّ عليه)

الآيات (١-٣)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

يأيّها النّبيّ اتّق الله : دم على تقواه(١)

سورة الأحزاب من المدنيّ من القرآن الكريم الّذي نزل بعد هجرة النّبيّ ﷺ إلى المدينة المنوّرة(٢) وسمّيت السّورة سورة الأحزاب لحديثها المستفيض عن غزوة الأحزاب الّتي تسمّى كذلك غزوة الخندق، وسمّيت غزوة الأحزاب لتحزّب المشركين والمنافقين ويهود بنى قريظة ضدّ النّبيّ ﷺ والمسلمين في تلك الغزوة الّتى كانت في شوّال سنة خمسٍ من الهجرة(٣) وسمّيت غزوة الخندق لأجل الخندق الّذي حُفر حول المدينةبأمر النّبيّ ﷺ. وكان الّذي أشار بذلك سلمان الفارسيّ رضي الله تعالى عنه (٤) وعقب انتهاء غزوة الأحزاب كانت غزوة بنى قريظة بعدها مباشرة، وقد توجّه النّبيّ ﷺ إلى يهود بنى قريظة لسبعٍ بقين من ذى القعدة من السّنة الخامسة ذاتها(٥)

---

(١) الجلالين

(٢) انظر الإتقان ١/ ٤٣

(٣) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣/ ٢٢٤

(٤) فتح البارى ٧/ ٣٩٢و٣٩٣

(٥) فتح البارى ٧/ ٤٠٨

ومن العلمـاء من ذهب إلى أنّ غزوة الأحزاب كانت في شـوّال سنة أربع من الهجرة وليس سنة خمسٍ من الهجرة الّـذى هو رأي جمهور العلماء. والحقيقة أن الخلاف بين الفـريقين لفظيّ. لأنّ الّذين ذهـبوا إلى أنّ الغزوة كانت سـنة أربع من الهجرة عـدُّوا التّاريخ الهجـريّ من المحرّم الّذي وقع بعـد سنة الهجرة، وبـالتّالي يلغون الأشهر الّتي قبل ذلك إلى ربيع الأوّل. وهذا الرّأي مخالفٌ لما عليه الجمهور من جعل التّاريخ من المحرّم سنة الهجرة(١)

تبدأ السّورة الكريمة بـنداء النّبيّ ﷺ بصفة الـنّبوّة وليس بـاسمه عليه الصّلاة والسّلام: ﴿يا أيّهـا النّبيّ﴾ وما أكثر المواضـع في القرآن الكريم الّتي خـوطب فيها عليه الصّلاة والسّلام ونودي بصفة النّبوّة. والمعروف أنّ محمّداً ﷺ، من بين سائر النبيّين والمرسلـين، هو النّبيّ الوحيد الّذي ينادي بصفة النّـبوّة، كما هو الحال هنا، وبصفة الرّسالة: ﴿يا أيّها الرّسول﴾ في الآيتين الكريمتين الحادية والأربعين والسّابعة والسّتّين من سورة المائدة. وليـس لهذين الموضـعين ثالثٌ في القـرآن الكريم. إذ الأنبيـاء الآخرين والمرسلين أجـمعين ينادون فـي القرآن الكريم بـأسمائهم عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه.

ويؤمر عليه الـصّلاة والسّلام بأن يتّقي الله تعالى، أي أن يـدوم على تقواه عز وجلّ. والتّقوى هي الـوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله تعالـى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فـإنه يراك. وحينمـا يؤمر المصطفـى ﷺ بتقوى الله تعالـى يكون الأمر شاملاً لأمّته عليه الصّلاة والسّلام بطريق الأَحْرى والأولى.

---

(١) انظر فتح الباري ٧/ ٣٩٣

وبعد الأمر بتقوى الله تعالى يُنْهَى عليه الصّلاة والسّلام عن طاعة الكافرين والمنافقين. والمراد بالكافرين كافرو العرب ويهود. ويأتى على رأس كافرى العرب كافرو مكّة. والمعروف أنّ ظهور الكفر في مكّة وفي غيرها آنذاك أمرٌ طبيعيّ بسبب ضعف المسلمين قبل الهجرة، وقوّة الكافرين. والكفر معناه إعلان الكفر على رءوس الأشهاد دون خوف. ولهذا أظهر المكّيّون كفرهم وأعلنوه كما أعلنه سواهم من الكافرين أمثالهم.

والمراد بالمنافقين الّذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام. والمعروف أنّ ظهور النّفاق في المدينة المنوّرة آنذاك أمرٌ طبيعيٌّ أيضاً، بسبب قوّة المسلمين، وقيام دولتهم في المدينة المنوّرة بهجرة النّبيّ ﷺ إليها، وبسبب ضعف الكافرين. لقد أخفى الكافرون كفرهم وأعلنوا إيمانهم فكان لهم وجهان، خفيٌّ قبيح، وظاهرٌ مليح، وكان منهم النّفاق، وهو الدّخول في الشّرع من باب والخروج عنه من باب، أسوةً باليَرْبوع(١) الّذي له نافقاء. والنّافقاء إحدى جِحَرة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها. وهو أصل النّفاق(٢) يقال: قد نافق اليربوع ونفق(٣)

والمعروف أنّ محمّداً ﷺ هو النّبيّ الوحيد الّذي ارتبطت دولته بدعوته عليه الصّلاة والسّلام. لقد وُلِدَت الدّولة الإسلاميّة بالهجرة النّبويّة الشّريفة إلى المدينة المنوّرة. وكانت المدينة المنوّرة وقت الهجرة العاصمة والدّولة معًا. وحدود المدينة المنوّرة آنذاك بضعة كيلو مترات مربّعة. ولم يلحق المصطفى ﷺ بالرّفيق الأعلى

---

(١) اليربوع حيوان صغيرٌ على هيئة الجرذ الصّغير، وله ذنبٌ طويلٌ ينتهى بخُصْلةٍ من الشّعر، وهو قصير اليدين طويل الرّجلين. المعجم الوسيط: «ربع»

(٢) المعجم الوسيط: «نفق»

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى: «نفق» ٢/ ٦٥٠

حتّى كانت حدود الدّولة الإسلاميّة الفتيّة قد تجاوزت كثيراً المليون كيلو متر مربّع.

وكأنّ الآية الكريمة الأولى تومىء إلى فئات المجتمعات في الجزيرة العربيّة من مؤمنين، وكافرين من عربٍ وأهل كتاب، ومنافقين. ولكلّ هذه الفئات نصيبٌ في سورة الأحزاب الكريمة.

وبعد الأمر بتقوى الله تعالى والنّهي عن طاعة الكافرين والمنافقين يأتى التّذييل: ﴿إنّ الله كان عليماً حكيما﴾ وكأن صفة العلم المتقدّم تتمشّى مع الأمر المتقدّم وكلاهما منحٌ وإقدام، وكأنّ صفة الحكمة المتأخّرة تتمشّى مع النّهيِ المتأخّر، وكلاهما منعٌ وإحجام. والله تعالى أعلم. إنّ الله تعالى هو الّذى أحاط بكلّ شيءٍ علماً، وهو الحكيم في كلّ قولٍ وفعلٍ وفي كلّ شيء.

والنّبيّ ﷺ المنهيّ عن طاعة الكافرين والمنافقين، وأمّته عليه الصّلاة والسّلام تبعٌ له في ذلك، مأمورٌ بأن يتّبع ما أوحى الله تعالى إليه من قرآن كريم وسنّةٍ نبويّةٍ مطهّرة. إنّ الله تعالى خبيرٌ بما نعمل جميعاً. والخبرة أكثر تعلّقاً ببواطن الأمور، ومن باب الأحرى ظواهرها. والله تعالى يستوى في حقّه العلم بالظّاهر والباطن.

وحينما تكون ثمّة طاعةٌ مطلقةٌ لله تعالى يكون ثمّة توكّلٌ مطلقٌ على الله تعالى. إنّ المصطفى ﷺ مأمورٌ بأن يتوكّل على الله تعالى ومن باب الأحرى أمّته عليه الصّلاة والسّلام ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ وحسبك بالله حفيظا(١)

---

(١) تفسير الطّبرى ٢١ / ٧٤

(٢)

(ما جعل الله تعالى لرجل منْ قلبين يعقل بهما، وما جعل الزّوجات ٱلمَظاهَر منهنّ أمّهات، وما جعل الأدعياء أبناء)

الآيتان (٤و٥)

مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى
جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ
وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ
يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾

ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه: هذا تكذيبٌ من الله تعالى لمن قال من كفّار قريش إنّ له قلبين يعقل بكلّ منهما أفضل من عقل محمّد ﷺ. وكان يقال له: ذو القلبين(١)

وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهنّ أمّهاتكم: ولم يجعل الله أيّها الرّجال نساءكم اللائى تقولون لهنّ أنتنّ علينا كظهور أمّهاتنا أمّهاتكم، بل جعل ذلك من قيلكم كذباً وألزمكم عقوبةً لكم كفّارة(٢)

وما جعل أدعياءكم أبناءكم: ولم يجعل الله من ادّعيت أنّه ابنك وهو ابن غيرك ابنك بدعواك. وذُكِرَ أنّ ذلك نزل على رسول الله ﷺ من أجل تبنّيه زيد بن حارثة(٣)

ذلكم قولكم بأفواهكم: لا يثبت بهذه الدّعوى نسب الّذى ادّعيت بنوّته ولا تصير الزّوجة أمّاً بقول الرّجل لها أنت عَلَيَّ كظهر أمّى(٤)

والله يقول الحقّ: بقوله يثبت نسب من أثبت نسبه، وبه تكون المرأة للمولود أُمّاً إذا حكم بذلك(٥)

---

(١) انظر أسباب النّزول للواحدى ٤٠٧ وتفسير الطّبرى ٢١/ ٧٤و٧٥ وتفسير ابن كثير ٦/ ٣٧٧ والجلالين

(٢) تفسير الطّبرى ٢١/ ٧٥

(٣) تفسير الطّبرى ٢١/ ٧٥

(٤) تفسير الطّبرى ٢١/ ٧٦

(٥) تفسير الطّبرى ٢١/ ٧٦

تقرّر الآية الكريمة نفي ثلاثة أمور أراد النّاس إثباتها، وتبيّن أنّ هذه الأمور الثّلاثة أمورٌ مرغوبٌ عنها وينبغي تصحيحها، وهي على النّحو التّالي:

الأمر الأول: زعم كفّار قريش أنّ واحداً منهم له قلبان اثنان في جوفه يعقل بكلّ منهما أفضل من عقل محمّد بن عبدالله ﷺ. وكذب الكافرون. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ العزّة والجلال الّذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ما جعل لشخصٍ واحد قلبين اثنين في صدره. ومع أنّ الآية الكريمة تعنى القلب الحسّيّ أساسًا، فإنّها وراء ذلك تعنى القلب المعنويّ الّذي يعقل ويفقه، ويتفاعل مع الذّهن والفكر والبصيرة.

وليس بخافٍ أنّ ثمّة علاقةً وثيقةً حسّيّاً ومعنويّاً بين القلب من ناحية، والعقل أو الفكر من ناحيةٍ أخرى. وفي مجال المحسوسات ليس بخافٍ على أحد الخلاف بين الأطبّاء بشأن الدّليل على موت الإنسان، أهو توقّف القلبً أم موت الدّماغ. والأكثرون يرون موت الدّماغ هو دليل الموت. وإنّ هذا الخلاف ذاته دليل العلاقة الوثيقة بين القلب والعقل.

وكما كانت العلاقة وثيقةً في المحسوسات بين القلب والعقل، كانت العلاقة وثيقةً في المعنويّات بين القلب والعقل. وإليك هذه الآيات الكريمات في هذا المعنى. جاء في سورة الأعراف(١) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام بل هم أضلّ. أولئك هم الغافلون﴾ وجاء في سورة

---

(١) الآية ١٧٩

الأعراف(١) كذلك قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿أو لم يَهْدِ للّذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم. ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾ وجاء في سورة الحجّ(٢) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنّها لا تَعْمَى الأبصار ولكن تَعْمَى القلوب الّتى في الصّدور﴾

وهكذا، كما لا يكون لأيّ شخصٍ قلبان اثنان، لا يكون لأيّ شخصٍ القدرة على التّركيز على فكرتيْن اثنتين في آنٍ واحد، وبقدرٍ واحدٍ من الاهتمام.

الأمر الثّانى: زعم العرب أنّ قول الواحد لزوجه بقصد إيقاع الطّلاق: أنت عَلَيَّ كظهر أمّى، ينزّل الزّوجة منزلة الأمّ، فتحرم عليه زوجه ويقع الطّلاق. إنّ الزّوجة لا تكون بالظّهار أمّا ولا يقع بالظّهار الطّلاق. وفي الظّهار الكفّارة. ويلاحظ أنّ المراد بالقول: أنت عَلَيَّ كظهر أمّى أنت عليّ كبطن أمّى. وإنّما عدل العربيّ عن البطن إلى الظّهر إكراماً للأمّ وتعبيراً عن جليل قدرها. وقد أشارت الآيات الكريمات الأربع الأُوَل من سورة المجادلة إلى قصّة المرأة خولة بنت ثعلبة الّتي جادلت المصطفى ﷺ في زوجها أوس بن الصّامت الّذى ظاهر منها، وكان الظّهار يُعَدُّ طلاقاً، كما بيّنت الآيات الكريمات كفّارة الظّهار(٣) قال عزّ من قائل(٤): ﴿قد سمع الله قول الّتى تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما. إنّ الله سميعٌ بصير. الّذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهنّ أمّهاتهم. إنْ أمّهاتُهُمْ إلاّ الّلائى ولدنهم وإنّهم ليقولون منكراً من القول وزورا. وإنّ الله لعفوٌ غفور. والّذين يظاهرون من نسائهم ثمّ يعودون لما قالوا فتحرير رقبةٍ من قبل أن يتماسّا. ذلكم توعظون به. والله بما تعلمون خبير. فمن لم يجد فصيام شهرين

---

(١) الآية ١٠٠

(٢) الآية ٤٦

(٣) انظر أسباب النّزول للواحدى ٤٧١,٤٧٢

(٤) سورة المجادلة ١ـ٤

متتابعين من قبل أن يتماسّا. فمن لم يستطع فإطعام ستّين مسكينا. ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله. وتلك حدود الله. وللكافرين عذابٌ أليم﴾

وهكذا لا يجعل الظّهار الزّوجة أمّاً.

الأمر الثّالث: جعل العرب الابن المتبنَّى بمنزلة الابن من الصُّلب. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى ما جعل أدعياءكم الّذين ادّعيتم أنّهم أبناؤكم وهم أبناء غيركم، ما جعل أدعياءكم أبناءكم بدعواكم. وقد كان التّبنّى عند العرب ظاهرةً شائعةً ومعترفاً بها، وكان الدّعيّ ينزَّل منزلة الابن من الصّلب. وكان النّبيّ ﷺ قد تبنّى زيد بن حارثة فكان يقال له زيد بن محمّد.

وسورة الأحزاب الكريمة بيّنت حقيقة التّبنّى هنا على الإجمال نظريّاً. وهي في موضعٍ آخر قد بيّنت حقيقة التّبنّى على التّفصيل عمليّاً، وذلك حينما زوّج الحقّ جلّ وعلا محمّداً ﷺ زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها مطلّقة زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه الّذى تبنّاه المصطفى ﷺ. إنّ زواج المصطفى ﷺ من مطلّقة متبنّاه قضى قضاءً مبرمًا على عادة العرب في جعل المتبنَّى بمنزلة الابن من الصُّلب وتحريم زواج المتبنّى مطلّقة متبنّاه. قال عزّ من قائل(١): ﴿وإذ تقول للّذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتّق الله وتُخْفِى في نفسك ما الله مبديه وتخشى النّاس والله أحقّ أن تخشاه. فلمّا قضى زيدٌ منها وطراً زوّجناكها لكيلا يكونَ على المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطرا. وكان أمر الله مفعولا. ما كان على النّبيّ مِنْ حَرَج فيما فرض الله له. سنّة الله في الّذين خلوا من قبل. وكان أمر الله قدراً مقدورا. الّذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاّ الله. وكفى بالله حسيبا. ما كان محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النّبيّين. وكان الله بكلّ شيء عليما﴾

إنّ تنزيل الزوجة بالظّهار منزلة الأمّ في الحرمة وتنزيل المتبنَّى منزلة الابن من

---

(١) سورة الأحزاب ٣٧ـ٤٠

الصُّلب في تحريم زواج المتبـنّى من مطلقة متبنّاه لا يَعْدو كلٌّ مـنهما القول بالأفواه والكلام الّذى ليس له نصيبٌ من الحقيقة ولا رصيدٌ من الواقع.

إنّ الله سبحانه وتعـالى هو الّذى يقول الحقّ. فالوالدة هـي الّتى ولدت ولدها وليس الزّوجة المظاهَرَ منها. والولد هو الابن من الصُّلب وليس المتبنَّى.

وإنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى يهدى إلى سبيل الرّشاد والصّراط المستقيم.

ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ
هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ
فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم
بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

هو أقسط عند الله: هو أعدل عند الله(١)

فإخوانكم في الدّين ومواليكم: فهم إخوانكم في الدّين إن كانوا من أهل ملّتكم، ومواليكم إن كانوا محرّريكم(٢) فقولوا هذا أخي وهذا مولاي ويا أخي ويامولاي، يريد الأخوّة في الدّين والولاية فيه(٣)

جناح: حرج(٤)

تواصل الآية الكريمة الحديث في أهمّ المسائل الثّلاث الّتي تحدّثت عنها الآية الكريمة السّابقة وهي مسألة التّبنّي وإنزال المتبنّى منزلة الابن من الصّلب بحيث يكون له كلّ حقوق الابن من الصّلب بما في ذلك الميراث(٥) تأمر الآية الكريمة المؤمنين الّذين كانوا ينزّلون المتبنّى منزلة الابن من الصّلب بأن يدعوا المتبنّين وينسبوهم لآبائهم فلا يقال ـ مثلاً ـ زيد بن محمّد بل يقال: زيد بن حارثة، وهكذا. إن إلحاق الابن بأبيه أقسط عند الله تعالى وأعدل. عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنّ زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنّا ندعوه إلاّ زيد بن محمّد حتّى نزل القرآن: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾(٦)

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/ ٧٦ وفتح الباري ٨/ ٥١٧

(٢) تفسير الطّبري ٢١/ ٧٦

(٣) الكشّاف ٢/ ٥٣٠

(٤) تفسير الطّبري ٢١/ ٧٦

(٥) انظر تفسير القرطبي ٥٢٠١

(٦) فتح الباري ٨/ ٥١٧ حديث رقم ٤٧٨٢

فان لم تعلموا أيّها المسلمون آباء الّذين تبنّيتموهم كي تلحقوهم بهم وتنسبوهم إليهم، فهم إخوانكم في الدّين، ومواليكم وأصدقاؤكم، تهتمّون بأمورهم، وترعون مصالحهم، وتَصْدُقونهم النّصح.

وليس عليكم أيّها المسلمون جناحٌ ولا حرجٌ فيما أخطأتم به بعد الاجتهاد والتّحرّى فنسبتم أحداً إلى شخصٍ اعتقدتم أنّه أبوه والحقيقة غير ذلك. ولكن عليكم الجناح والإثم فيما تعمّدت قلوبكم ارتكابه من خطأ، كأن تعلموا الأب الحقيقىّ فتتجاهلوه وتتعمّدوا إلحاق ابنه بغيره، أو أن تقصّروا في البحث والتّحرّى.

وكان الله سبحانه وتعالى دائماً وأبداً غفوراً ذنب من تاب توبةً نصوحًا، رحيمًا بالمؤمنين، يهديهم سواء السّبيل، ويبدّل سيّئاتهم حسنات، فضلاً منه جلّ وعلا ونعمة.

(٣)

(منزلة النّبيّ ﷺ رفيعةٌ بين المؤمنين والنّبيّين، وزوجاته أمّهات المؤمنين، وأولو الأرحام أولى بالميراث)

الآيات (٦ ـ ٨)

النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم: فيما دعاهم إليه ودعتهم أنفسهم إلى خلافه(١)

وأزواجه أمّهاتهم: وحرمة أزواجه حرمة أمّهاتهم عليهم في أنّهنّ يحرم عليهم نكاحهنّ من بعد وفاته كما يحرم عليهم نكاح أمّهاتهم(٢)

وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين: وأولو الأرحام الّذين ورّثت بعضهم من بعض هم أولى بميراث بعضٍ من المؤمنين والمهاجرين أن يرث بعضهم بعضًا بالهجرة والإيمان دون الرّحم(٣) وبالحِلْف(٤)

إلاّ أن تفعلوا إلى: إلاّ أن تسدوا وتولوا(٥) وتوصلوا(٦) وتوصوا(٧)

---

(١) الجلالين

(٢) تفسير الطّبرى ٢١/٧٧

(٣) تفسير الطّبرى ٢١/٧٧

(٤) انظر تفسير القرطبى ٥٢٠٥و٥٢٠٦

(٥) الكشّاف ٢/٥٣١

(٦) البحر المحيط ٧/٢١٣

(٧) تفسير الطّبرى ٢١/٧٨

أوليائكم: لذوى قرابتكم من غير أهل الإيمان والهجرة(١)

معروفًا: من الوصيّة لهم والنُّصرة والعقل عنهم(٢) وما أشبه ذلك، لأنّ كلّ ذلك من المعروف الّذى قد حثّ الله عليه عباده (٣)

في الكتاب: في اللّوح المحفوظ(٤)

مسطورا: مكتوبا(٥)

تتحدّث الآية في ثلاثة معانٍ

المعنى الأوّل ويشمله القول: ﴿النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ والمعنى أنّ النّبيّ محمّداً ﷺ أولىٰ وأحقّ بالمؤمنين من أنفسهم، فينبغى عليهم أن يحبّوه عليه الصّلاة والسّلام بأكثر من حبّهم أنفسهم. وأن يكون هواهم تبعًا لما جاء به عليه الصّلاة والسّلام وإن خالف هواهم، وأن يحكّموه عليه الصّلاة والسّلام فيما حدث بينهم من خلاف ويرضوا بحكمه ويسلّموا تسليما.

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: مامِنْ مؤمنٍ إلاّ وأنا أولى النّاس به في الدّنيا والآخرة. اقرأوا أن شئتم: ﴿النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ فأيُّما مؤمنٍ ترك مالاً فليرثه عَصَبَتُهُ مَنْ كانوا، فإن ترك دَيْنًا أوضَياعًا فليأتنى وأنا مولاه(٦) وفى الصّحيح: والّذى نفسى بيده لايؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه وماله وولده والنّاس أجمعين(٧) وفي الصّحيح أيضاً أنّ عمر رضي الله

---

(١) تفسير الطّبرى ٢١/٧٨

(٢) العقل عنهم: دفع الدّية عنهم. والعاقل: دافع الدّية

(٣) تفسير الطّبرى ٢١/٧٨

(٤) تفسير الطّبرى ٢١/٧٩

(٥) تفسير الطّبرى ٢١/٧٩

(٦) صحيح البخارى ٦/١٤٥ وفتح البارى ٨/٥١٧ حديث رقم ٤٧٨١ والضّياع بفتح الضّاد: العيال.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/٣٨١ وانظر صحيح البخارى ١/١٠ وفتح البارى ١/٥٨ حديث رقم ١٤و١٥

عنه قال: يا رسول الله، والله لأنت أحبّ إليّ من كلّ شيءٍ إلاّ من نفسي. فقال: لا يا عمر، حتّى أكون أحبّ إليك من نفسك. فقال: يا رسول الله، لأنت أحبّ إليّ من كلّ شيءٍ حتّى من نفسي فقال: الآن ياعمر(١)

والمعنى الثّاني يشمله القول: ﴿وأزواجه أمّهاتهم﴾ لمّا كان ينبغي أن يكون للنّبيّ ﷺ من المنزلة في نفوس المسلمين ما ليس لمخلوق، وفيهم والد الإنسان(٢) فقد نال زوجاته عليه الصّلاة والسّلام في حقّ المسلمين منزلة الأمّهات بفضل الله تعالى ثمّ ببركة زواجهنّ به عليه الصّلاة والسّلام. وقوله: ﴿وأزواجه أمّهاتهم﴾ أي في الحرمة، والاحترام، والإكرام، والتّوقير، والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهنّ (٣) وحينما فكّر بعضهم في الزّواج ببعضهنّ بعد وفاته ﷺ نزل في هذه السّورة الكريمة قول الحقّ جلّ وعلا(٤): ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا. إنّ ذلكم كان عند الله عظيما. إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإنّ الله كان بكلّ شيء عليما﴾

إنّ الحقّ جلّ وعلا هو الّذي جعل زوجات المصطفى ﷺ أمّهات للمؤمنين. وإنّ الحقّ جلّ وعلا هو الّذي قضى في الظّهار بالكفّارة فلا تصير الزّوجة أمّاً بقول الزّوج لزوجه يريد الطّلاق والتّحريم: أنت عليّ كظهر أمّي. وهكذا تكون الأمّ محلّ عنايةٍ في سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة.

والمعنى الثّالث يشمله القول: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً. كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٨١

(٢) انظر مثلاً صحيح البخاري ١/ ١٠ وفتح الباري ١/ ٥٨ حديث رقم ١٤

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٨١

(٤) سورة الأحزاب ٥٣ و٥٤

والمعنى: وأولو الأرحام وأصحاب القرابات بالدّم والنّسب بعضهم أولى ببعضٍ في الميراث في كتاب الله تعالىٰ الّذى أوحاه إلى حبيبه ﷺ وهم أحقّ أن يرث بعضهم بعضًا كما بيّنت ذلك آيات الميراث الحادية عشرة والثّانية عشرة والسّادسة والسّبعون بعد المائة من سورة النّساء المدنيّة الكريمة. إنّ بعضهم أولى ببعضٍ للتّوارث بالدّم والنّسب من الحكم المؤقّت الّذى كان معمولاً به، وهو التّوارث بالإيمان والهجرة والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ذلك الحكم الّذى قضى به أحكم الحاكمين بعد هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنوّرة وطبّقه المصطفى ﷺ إلاّ أن تفعلوا أيّها المؤمنون لأوليائكم وأصدقائكم. وأحبابكم الّذين لا يرثونكم معروفاً، وتسدوا لهم جميلاً بالوصيّة لهم من الثّلث والنُّصرة لهم وتحمّل الدّيات عنهم وما إلى ذلك. إنّ كلّ أنواع المعروف وأصناف الجميل من حقّكم أن تسدوها إلى أوليائكم وأصدقائكم إنّ التّوارث بالنّسب والدّم كما بيّنت الآيات الكريمات الثّلاث من سورة النّساء كان في الكتاب مسطورا، وفي اللّوح المحفوظ مكتوبا.

وكما نسخت الآية الكريمة التّوارث بالإيمان والهجرة والمؤاخاة نسخت التّوارث بالحِلْف أو العَقْد أو العهد الّذى كان معمولاً به في الجاهليّة وصدر الإسلام. وهذا النّوع من الحِلْف أشارت إليه الآية الكريمة الثّالثة والثّلاثون من سورة النّساء. قال عزّ من قائل: ﴿ولكلٍّ جعلنا موالي ممّا ترك الوالدان والأقربون. والّذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم. إنّ الله كان على كلّ شيءٍ شهيدا﴾

وهذا هو معنى الآية الكريمة: ولكلٍّ منكم أيّها المخاطبون من الرّجال والنّساء جعلنا ورثةً(١) وعصبة(٢) يرثونكم وينالون ممّا ترك لكم آباؤكم وأقرباؤكم وورثتموه عنهم. والّذين عقدت أيمانكم وعاهدت، أكّدت عهودكم وواثقت، في هيئة الأحلاف الّتى عقدتموها بينكم في الجاهلية وفي صدر الإسلام، والّتى أبقى عليها الإسلام حتّى نزلت آية الأحزاب هذه والآية الكريمة الخامسة والسّبعون من

---

(١) تفسير الطّبرى ٥/٣٢و٣٣ وتفسير ابن كثير ٢/٢٥٢ وصحيح البخارى ٦/٥٥

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٢ وتفسير الطّبرى ٥/٣٣

سورة الأنفال وذلك في القول: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ آتوهم نصيبهم وهو السّدس من جميع المال، ثمّ الميراث ميراثهم [1] إنّ الله تعالى شهيدٌ على كلّ شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرّةٍ في السّماوات ولا في الأرض [2]

روى الإمام أحمد أنّ رسول الله ﷺ قال: لا حِلْفَ في الإسلام، وأيّما حلفٍ كان في الجاهليّة لم يزده الإسلام إلاّ شِدّة. وهكذا رواه مسلم والنّسائي [3]

---

(١) انظر تفسير الطّبرى ٥ / ٣٤

(٢) درسنا الآية الكريمة بإسهاب في كتابنا: تأمّلات في سورة النّساء ١٣٢ ـ ١٣٧

(٣) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٥٤

ممّا سبق يتبيّن أنّه بسبب المؤاخاة الّتي عقدها النّبيّ ﷺ بين المهاجرين والأنصار(١) فقال: تآخوا في الله أخوين أخوين (٢) فأصبح المهاجرون يرثون الأنصار دون ذوى رحمهم، والأنصار يرثون المهاجرين(٣) وحينما نزل قوله تعالى في سورة الأنفال(٤): ﴿والّذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من وَلايتهم من شيءٍ حتّى يهاجروا﴾ توارث المسلمون بالهجرة. فكان لايرث الأعرابيّ المسلم من قريبه المسلم المهاجر حتّى يهاجر(٥)

لقد نسخت آيتا سورتي الأحزاب والأنفال بالقول: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ كلّ الأحكام المؤقّتة للميراث من إيمانٍ وهجرةٍ ومؤاخاة وحلْف. وقد أعطت آيات المواريث في سورة النّساء كلّ ذى حقٍّ حقّه إلى أن يرث عزّ وجلّ الأرض ومن عليها.

---

(١) انظر مثلاً فتح البارى ٧٧/ ٢٧١ والسّيرة النّبويّة ١/ ٥٠٤

(٢) السّيرة النّبويّة ١/ ٥٠٤

(٣) انظر تفسير القرطبى ٥٢٠٦

(٤) الآية ٧٢ وقد درسنا الآية الكريمة بإسهابٍ في كتابنا: تأملات في سورة الأنفال ١٩٨ ـ ٢٠٢

(٥) تفسير القرطبى ٥٢٠٦

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾
لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

وإذ أخذنا: واذكر إذ أخذنا(١)

ميثاقهم: الميثاق عقدٌ مؤكّدٌ بيمينٍ وعهد(٢)

وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا: وأخذنا من جميعهم عهداً مؤكّدا أن يصدّق بعضهم بعضا(٣)

ليسأل الصّادقين عن صدقهم: ليسأل الله الصّادقين عن صدقهم في تبليغ الرّسالة تبكيتاً للكافرين بهم(٤)

واذكر يا محمّد إذ أخذنا من النّبيّين أجمعين العهد الموكّد عليهم بأن يبلّغوا الرّسالة ويؤدّوا الأمانة وأن يكونوا النّاصحين لأقوامهم الأمناء عليهم. وبعد العموم يكون الخصوص ويكون عطفٌ للخاصّ على العامّ وذلك بالنّصّ على أولى العزم الخمسة من الرّسل، وهم وفق ترتيبهم الزّمنيّ نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وهم في الآية الكريمة يبدأون بمحمّد ﷺ في القول: ﴿ومنك﴾ والمعنى وإذ أخذنا كذلك الميثاق منك يا محمّد. وهذا دليلٌ على أنّ محمّداً ﷺ زعيم أولى العزم من الرّسل الخمسة المعروفين بشدّة الصّبر وقوّة الاحتمال بفضل الله تعالى.

وإلى امتياز أولى العزم من الرّسل بالصّبر أوْمأ قول الحقّ جلّ وعلا خطاباً للمصطفى ﷺ في سورة الأحقاف(٥): ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرّسل

---

(١) الجلالين والبحر المحيط ٧/٢١٣

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «وثق» ٢/٦٦٤

(٣) تفسير الطّبرى ٢١/٧٩

(٤) الجلالين

(٥) الآية ٣٥

ولا تستعجل لهم. كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاّ ساعةً من نهار. بلاغٌ فهل يُهْلَك إلاّ القوم الفاسقون﴾

وهؤلاء أولو العزم الخمسة من الرّسل جاء النّصّ عليهم في الآية الكريمة الثّالثة عشرة من سورة الشّورى. قال عزّ من قائل: ﴿شرع لكم من الدّين ما وصّى به نوحًا والّذى أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدّين ولا تتفرّقوا فيه. كبر على المشركين ما تدعوهم إليه. الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب﴾ وحديث آية الشّورى عن الدّين الّذى وصّى الله تعالى به رسله. ولمّا كان نوحٌ عليه السّلام أوّل الرّسل فقد لزم الابتداء بذكر اسمه عليه الصّلاة والسّلام. ثمّ جاءت الإشارة إلى محمّد بن عبدالله ﷺ خاتم النّبيّين دليلاً آخر على أنّه عليه الصّلاة والسّلام زعيم أولى العزم من الرّسل، فقد رُتّب الرّسل بعد ذلك تأريخيًا، وهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم جميعًا صلوات الله تعالى وسلامه.

ودليلاً على عِظَم الميثاق المأخوذ من النّبيّين عليهم جميعًا صلوات ربّ العالمين وسلامه يوصف في آية سورة الأحزاب بالغِلظ والضخامة في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وأخذنا منهم ميثاقًا غليظا﴾

لقد جاء ذكر أخذ الميثاق في الآية الكريمة مرّتين اثنتين بصريح اللّفظ، وحينما يأتىّ في الآية الكريمة خصوصٌ بذكر أولى العزم من الرّسل بعد عموم النّبيّين، يكون ثمّة ذكرٌ ثالثٌ لأخذ الميثاق من أولى العزم من الرّسل، ولكنّه أخذٌ مفهومٌ ضمنًا أو مضمر. وكل ذلك دليلٌ على أهمّيّة الميثاق وخطورته.

وتقرّر الآية الكريمة الأخرى أنّ أخذ الميثاق من النّبيّين ليسأل عزّ وجلّ يوم القيامة المرسلين الصّادقين عن صدقهم في تبليغ الرّسالة وتأدية الأمانة تبكيتًا للكافرين المكذّبين المستهزئين الّذين أعدّ الله تعالى لهم عذاباً أليمًا يوم القيامة.

(٤)
(غزوة الأحزاب أو الخندق)
الآيات (٩-٢٥)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

من البيّن أنّ الآيات الكريمات الثّلاث تتحدّث عن نعمة الله تعالى على المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ بنصرهم على الأحزاب من مشركى قريش وغطفان ومن شايعهم من يهود بنى قريظة والمنافقين، في غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق، الّتى كانت في شهر شوّال، سنة خمسٍ من الهجرة(١)

وسبب الغزوة تحريضُ فريقٍ من يهود بنى النّضير الّذين أجلاهم النّبيّ ﷺ عن المدينة إلى خيبر سنة أربعٍ من الهجرة بسبب غدرهم(٢) ودعوتُهُمْ كلاًّ من مشركى قريش(٣) وغَطَفان من قيس عَيْلان، إلى حرب رسول الله ﷺ(٤) وأخبروا الفريقين أنّهم سيكونون معهم عليه(٥)

---

(١) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ / ٢٢٤

(٢) السّيرة النّبويّة ٣ / ١٩٩، ٢٠١

(٣) السّيرة النّبويّة ٣ / ٢٢٦

(٤) السّيرة النّبويّة ٣ / ٢٢٦

(٥) السّيرة النّبويّة ٣ / ٢٢٦

خرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة ابن حِصْن بن حذيفة بن بدر في بنى فَزارة(١) وأقبلت قريش وأحابيشها ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد(٢) والجميع قريبٌ من عشرة آلاف(٣)

سمع النّبيّ ﷺ بقدوم الأحزاب فأمر بحفر الخندق في الجهة الشّماليّة من المدينة المنوّرة بين اللّابتين أي الحرّتين، الحرّة الشّرقيّة وتسمّى كذلك حرّة واقم(٤) سمّيت باسم حصن لبنى عبد الأشهل الأوسيّين(٥) والحرّة الغربيّة، وتسمّى كذلك حرّة الوبْرة(٦) والوبْرة أنثى الوبْر بالتّسكين، دويبّة على قدر السِّنَّوْر غَبْراء أو بيضاء من دوابّ الصّحراء حسنة العينين شديدة الحياء تكون بالغَوْر(٧) وكان سلمان رضى الله عنه هو الّذى أشار على النّبيّ ﷺ بحفر الخندق(٨) قال ابن هشام: يقال إنّ سلمان الفارسيّ أشار به على رسول الله ﷺ. وحدّثنى بعض أهل العلم أنّ المهاجرين يوم الخندق قالوا: سلمان منّا، وقالت الأنصار: سلمان منّا. فقال رسول الله ﷺ: سلمان منّا أهلَ البيت(٩)

وإنّما اقتصر حفر الخندق على الجهة الشّماليّة وحدها لأنّها الجهة الوحيدة المكشوفة الّتى يمكن أن يأتي منها الأعداء، ولهذا أتوا منها في غزوة الأحزاب هذه،

---

(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣/ ٢٢٦

(٣) السّيرة النّبويّة ٣/ ٢٣٠

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٨٤

(٤) آثار المدينة المنوّرة ١٥٠ عبدالقدّوس الأنصاري الطّبعة الثّانية ١٣٧٨هـ

(٥) آثار المدينة المنوّرة ١٥١

(٦) آثار المدينة المنوّرة ١٥٣

(٧) لسان العرب: «وبر»

(٨) السّيرة النّبويّة ٣/ ٢٣٥ وتفسير ابن كثير ٦/ ٣٨٤

(٩) السّيرة النّبويّة ٣/ ٢٣٥ وكان ذلك في أثناء حفر الخندق

وأتوا منها في غزوة أُحُد من قبل.

أمّا الجهات الثّلاث الباقيات فإنّها بفضل الله تعالى حصينةٌ بطبعها ولا يستطيع أن يخترقها أيّ جيشٍ نظاميّ. إنّ في الجهتين الشّرقيّة والغربيّة حرّتين. والحرّة عبارةٌ عن أرضٍ بركانيّةٍ نخرة مؤذيةٍ بطبعها لحوافر الخيل وما إلى ذلك من دوابّ. وإنّ في الجهة الجنوبيّة قباء، ببساتينها المتّصلة، وزروعها الكثيفة، وأشجارها المنيفة، ونخلها الكثير، ومبانيها المعترضة.

ولمّا فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتّى نزلت بمجتمع الأسيال من رُومة(١) بين الجُرف(٢) وزُغابة(٣) وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتّى نزلوا بذنب نَقَمى(٤) إلى جانب أحد. وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتّى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع(٥) في ثلاثة آلافٍ من المسلمين. فضرب هنالك عسكره، والخندق بينه وبين القوم(٦)

وخرج عدوّ الله حُيَيّ بن أخطب النَّضَريّ حتّى أتى كعب بن أسد القُرظيّ صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله على قومه، وعاقده

---

(١) هذه البئر في عرصة العقيق الكبرى، شمال غرب المدينة. ولعذوبة ماء بئر رومة رغّب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في شرائها وجعلها وقفاً على المسلمين، فاشتراها عثمان رضي الله تعالى عنه ووقفها. آثار المدينة المنوّرة ١٧٨ و١٧٩ وقد رأيت البئر شخصيّاً يوم الأربعاء ٢٣/ ٤/ ١٣٨٦هـ غزيرة الماء. ورأيتها بعد سنواتٍ قلائل جافّة.

(٢) الجرف بالضمّ والسكون: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشّام. وكان يسمّى العِرْض، بكسر العين. ياقوت.

(٣) زغابة بضمّ الزّاي (قاموس) غربيّ قبر حمزة رضي الله عنه، ويصبّ فيها سيل العقيق ووادى قناة وبُطْحان. آثار المدينة المنوّرة ١٢٥ وانظر القاموس.

(٤) نَقَمى بالتّحريك والقصر: موضع من أعراض المدينة كان لآل أبى طالب. ياقوت

(٥) سَلْع بفتح السّين، جبل شامخ في شمال المدينة. آثار المدينة المنوّرة ١٤٦

(٦) السّيرة النّبويّة ٣/ ٢٣١

على ذلك وعـاهده(١) لم يستجب كعـب بن أسد القرظيّ أوّل الأمر لحيـيّ بن أخطب الّذي أغراه بنقض العهد مع محمّد ﷺ لأنّه لم يجد منه ﷺ إلاّ وفاءً وصدقا(٢) والّذى بشّره بأنّه جاءه بـقريش على قادتها وسادتهـا، وبغطفان على قادتها وسـادتها(٣) وإنّما استجاب كعبٌ آخر الأمر لحييّ بعد: «أن أعطاه عهداً من الله وميثاقا: لئن رَجَعَتْ قريش وغطفان ولم يصيبوا محمّداً أن أدخل معك في حصنك حتّى يصيبنى ما أصابك. فنقض كعب بن أسد عهده، وبرىء ممّا كان بينه وبين رسول الله ﷺ»(٤)

---

(١) السّيرة النّبويّة ٣/ ٢٣١

(٢) السّيرة النّبويّة ٣/ ٢٣١

(٣) السّيرة النّبويّة ٣/ ٢٣٢

(٤) السّيرة النّبويّة ٣/ ٢٣٢

ولمّا انتهى إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين الخبر أراد عليه الصّلاة والسّلام أن يستوثق منه فأرسل من أجل هذه المهمّة سعد بن معاذ سيّد الأوس، وسعد بن عُبادة سيّد الخزرج، ومعهما عبدالله بن رواحة الخزرجيّ وخوّات بن جبير الأوسيّ فقال عليه الصّلاة والسّلام: «انطلقوا حتى تنظروا، أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقّاً فالحنوا لي لحناً(١) أعرفه، ولا تفتّوا في أعضاد النّاس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للنّاس»(٢)

تبيّن للوفد صدق الخبر وتأكدّ لهم غدر بنى قريظة ونقضهم المثياق، فرجعوا إلى النّبيّ ﷺ ولحنوا له لحنًا يعرف به غدر بنى قريظة فقالوا: «عَضَلٌ والقارَة، أي كغدر عَضَل والقارة بأصحاب الرَّجيع، خُبَيب وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين»(٣)

وبالإضافة إلى بنى قريظة الغادرين من الدّاخل هنالك المنافقون الّذين يبطنون الكفر ويعلنون الإيمان والّذين ظهر نفاقهم حتّى قال أحدهم: «كان محمّد يَعدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحَدُنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط»(٤)

وهكذا رمى المشركون واليهود والمنافقون المسلمين عن قوسٍ واحدة. وهمّ النّبيّ ﷺ أن يعطى قائدي غطفان، عيينة بن حصن والحارث بن عوف ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه. وقَبْلَ أن يُمْضِي النّبيّ ﷺ الصّلح أطلع عليه سيّدي الأوس والخزرج سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، ولمّا علم السّيّدان أنّ الصّلحَ شيءٌ أراده ﷺ من ذات نفسه وباجتهاده كي يكسر عنهم شوكة الأعداء إلى حين، قال له

---

(١) اللّحن أن يكون للكلام معنًى بعينه لا يعرفه إلاّ المتكلّم والمخاطب وَحْدَهما

(٢) السّيرة النّبويّة ٣/٢٣٢

(٣) السّيرة النّبويّة ٣/٢٣٣ والرّجيع ماءٌ لهذيل بين مكّة والطّائف ياقوت. وهو الموضع الّذى غدرت فيه عَضَل والقارَة بالقرّاء ليعلّموهم شرائع الإسلام. انظر السّيرة ٣/١٧٨

(٤) السّيرة النّبويّة ٣/٢٣٣

سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه: «يا رسول الله، قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشّرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلاّ قِرى(١) أو بيعًا. أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه نعطيهم أموالنا! والله ما لنا بهذا من حاجة. والله لا نعطيهم إلاّ السّيف حتّى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصّحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب ثمّ قال: ليجهدوا علينا»(٢)

ولم يستطع المشركون أن يقتحموا الخندق سوى عددٍ قليلٍ منهم وفيهم عمرو بن عبد وَدّ العامريّ من بنى لؤيّ من قريش، فارس قريش وشجاعها في الجاهليّة(٣) فبرز له علي بن أبى طالب رضي الله عنه فقتله، وخرجت خيلهم منهزمة، حتّى اقتحمت من الخندق هاربة(٤)

وأقام رسول الله ﷺ وأصحابه، فيما وصف الله من الخوف والشّدّة، لتظاهر عدوّهم عليهم، وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم(٥)

وتحقيقاً لوعد الله تعالى الحقّ وقوله الصّدق في سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام(٦): ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾ شاء الله تعالى أن يدخل في الإسلام سراً نُعيم بن مسعود الغطفانى وأن يأتي رسول الله ﷺ

---

(١) القِرى: ما يصنع للضّيف من الطّعام

(٢) السّيرة النّبويّة ٣/ ٢٣٤

(٣) الأعلام ٥/ ٨١

(٤) السّيرة النّبويّة ٣/ ٢٣٦

(٥) السّيرة النّبويّة ٣/ ٢٤٠

(٦) الآية ٧

فيأمره بما شاء: «فقال رسول الله ﷺ: إنّما أنت فينا رجلٌ واحدٌ فخذّلْ عنّا(١) إن استطعت، فإنّ الحرب خُدْعة»(٢)

ووفّق الله تعالى نعيم بن مسعود فمزّق بدهائه صفوف الأحزاب فأفسد ما بين المشركين من ناحية وبين يهود بنى قريظة من ناحيةٍ أخرى. «وخذّل الله بينهم، وبعث الله عليهم الرّيح في ليالٍ شاتيةٍ باردةٍ شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم»(٣)

ولم يُسْتَشْهَدْ من المسلمين يوم الخندق إلاّ ستّة نفر(٤) وقُتل من المشركين ثلاثة نفر(٥)

وعلى الرّغم من كون غزوة الأحزاب لم يُسْتَشْهَدْ فيها من المسلمين إلاّ العدد القليل ولم يتمّ فيها التحامٌ فعليٌّ بين الجيشين فإنّها تكاد تكون أشقّ الغزوات على المسلمين على نحو ما يُفْهَم من الآيات الكريمات الثّلاث الّتى صُدّر بها الحديث عن غزوة الأحزاب.

---

(١) خذّل عنّا: ادخل بين القوم حتّى يخذل بعضهم بعضا..

(٢) السّيرة النّبويّة ٣/ ٢٤٠

(٣) السّيرة النّبويّة ٣/ ٢٤٢

(٤) السّيرة النّبويّة ٣/ ٢٦٤

(٥) السّيرة النّبويّة ٣/ ٢٦٤

والمعروف أنّ رسول الله ﷺ حُصر شهرا(١)

فأرسلنا عليهم ريحاً: ريح الصبَّا أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتّى كفأت قدورهم على أفواهها ونزعت فساطيطهم حتّى أظعنتهم(٢) عن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النّبيّ ﷺ قال: نُصِرتُ بالصَّبا، وأهلكت عادٌ بالدَّ بور(٣)

وجنوداً لم تروها: الملائكة(٤)

إذ جاءوكم من فوقكم: عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر في أهل نجد(٥)

ومن أسفل منكم: أبو سفيان(٦)

وإذ زاغت الأبصار: الزّيغ الميل عن الاستقامة(٧) يقول: وحين عدلت الأبصار عن مقرّها وشخصت طامحة(٨)

وبلغت القلوب الحناجر: نَبَت القلوب عن أماكنها من الرّعب والخوف فبلغت إلى الحناجر(٩) والحناجر جمع الحَنْجرة، وهى الحُلقوم ومجرى النَّفَس في الرّقبة(١٠)

---

(١) تفسير الطّبرى ٢١/ ٨١

(٢) تفسير الطّبرى ٢١/ ٨١

(٣) فتح البارى ٧/ ٣٩٩ حديث رقم ٤١٠٥

(٤) تفسير الطّبرى ٢١/ ٨١

(٥) تفسير الطّبرى ٢١/ ٨٢

(٦) تفسير الطّبرى ٢١/ ٨٢

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «زيغ» ١/ ٢٨٧

(٨) تفسير الطّبرى ٢١/ ٨٣

(٩) تفسير الطّبرى ٢١/ ٨٣

(١٠) المعجم الوسيط: «حنجرة»

وتظنّون بالله الظّنونا: ظنوناً مختلفة. ظنّ المنافقون أنّ محمّداً وأصحابه يُستأْصلون. وأيقن المؤمنون أنّ ما وعدهم الله حقّ، أنّه سيظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون(١)

هنالك: عند ذلك(٢)

ابتلي المؤمنون: اختبر إيمان المؤمنين ومُحِّص القوم وعرف المؤمن من المنافق(٣)

وزلزلوا زلزالاً شديدا: وحُرِّكوا بالفتنة تحريكاً شديداً وابتلوا وفتنوا (٤)وزعزعوا من الرّعب(٥)

تنادى الآية الكريمة الأولى المؤمنين، والمراد بهم الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم الّذين شهدوا غزوة الأحزاب، وتقول لهم: اذكروا نعمة الله تعالى الجليلة عليكم وفضله العظيم وخيره العميم، إذ جاءتكم ووصلت إليكم فعلاً في عُقْر داركم جنودٌ تفوقكم عدداً وعدّة، فأرسلنا عليهم وسلّطنا عليهم ريحاً ملتئمة الأجزاء غايةً في القوّة والعنف والبرودة، وأرسلنا عليهم وسلّطنا جنوداً لم تروها من الملائكة، فعمل كلٌّ من الرّيح والملائكة ما أمره الله تعالى به فلم يستطع الأعداء أن يمكثوا بل رحلوا فوراً لا يلوون على أَحَد.

وكان الله تعالى بما تعملون أيّها المؤمنون بقيادة المصطفى ﷺ بصيراً، فلا يخفى عليه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

والآية الكريمة الثّانية تبيّن حال كلٍّ من المشركين والمؤمنين الّذين تفاوتت درجات إيمانهم حتّى اقترب ضعيف الإيمان منهم من دائرة النّفاق. ويا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة اللهعليكم إذ جاءكم من فوقكم، غطفان وأنصارها وأتباعها، وكانوا قد جاءوا من

---

(١) تفسير الطّبرى ٢١/ ٨٤

(٢) تفسير الطّبرى ٢١/ ٨٤

(٣) انظر تفسير الطّبرى ٢١/ ٨٤

(٤) تفسير الطّبرى ٢١/ ٨٤

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «زل» ١/ ٢٨٣

المشرق، من المناطق العليا بالقياس إلى المدينة، وإذ جاءكم من أسفل منكم، قريشٌ وأحابيشها وأتباعها، وكانوا قد جاءوا من المغرب، من المناطق السُّفْلَى بالقياس إلى المدينة. وقد ساعد المشركين كلٌ من يهود بني قريظة والمنافقين. وهكذا رمى الأعداء بكامل فئاتهم عن قوسٍ واحدة، فكان موقف المؤمنين عصيبا.

يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاء الأعداء وإذ زاغت أبصار المؤمنين، ولم يقرّ لها قرار، ولم تستقر على حال، وكأنّها تترقّب الأعداء من كلّ ناحيةٍ في آنٍ واحد، وإذ بلغت القلوب الحناجر فكأنّها لفرط الخوف قد تركت مواضعها، وكأنّها لشدّة الرّعب تريد أن تفارق الصّدور، وتغادر الأجساد، لولا أنّ الحناجر لضيقها منعتها، ولولا أنّ مجرى النّفس في الرّقبة لم يتّسع لمرورها، وإذ تظنّون بالله تعالى الظّنون المختلفة بحسب درجات الإيمان ومراتب اليقين. إنّ راسخي الإيمان لمّا رأوا الأحزاب: ﴿قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليما﴾(١) أمّا المنافقون والّذين في قلوبهم مرضٌ فقالوا: ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً﴾(٢) وتفاوتت درجات القول قربًا من الحسن بحسب الإيمان، وتفاوتت دركات القول دنواً من السّوء بحسب ضعف الإيمان ومرض القلب والنّفاق.

والآية الكريمة الثّالثة تقرّر أنّه في ذلك الوقت العصيب والموقف الرّهيب اختُبِرَ المؤمنون اختباراً قاسياً، وزُلْزِلوا من النّاحية النّفسيّة زلزالاً شديداً. إنّ من حقّنا أن نتمثّل أشدّ الزّلازل الطبيعيّة عنفًا وتدميراً. لقد حلّ في نفوس المؤمنين آنذاك معنويّاً ما يضارعه أو يفوقه.

وهكذا يتبيّن بحقّ أنّ غزوة الأحزاب من أشقّ الغزوات على المؤمنين من الوجهة النّفسيّة إن لم تكن أشقّها.

---

(١) سورة الأحزاب ٢٢

(٢) سورة الأحزاب ١٢

وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾

والّذين في قلوبهم مرض: شكٌ في الإيمان وضعفٌ في اعتقادهم إيّاه(١)
غرورا: باطلا(٢)

واذكروا كذلك أيّها المؤمنون نعمة الله تعالى عليكم إذْ يقول المنافقون والّذين في قلوبهم شكٌ في الإيمان وضعفٌ في الاعتقاد ما وعدنا الله تعالى ورسوله من نصرٍ على الأعداء وتمكينٍ للدّين وتبديلٍ للخوف إلاّ باطلاً وغرورا: ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا﴾(٣)

ومن البيّن أنّ هاتين الطّائفتين تمثّلان أحطّ دركات النّفاق ومرض القلوب بالشّكّ وضعف الاعتقاد. ويصحّ أن يكون المنافقون الّذين تمكّن النّفاق من قلوبهم أشدّ سوءاً من الّذين فيهم مرض الشّكّ وضعف اليقين، وإن كان الفرق بين الفريقين ليس كبيراً. ويصحّ أن نستدلّ على تفاوت الفريقين سوءاً مِنْ تقديم لفظ الجلالة: ﴿الله﴾ وكأنّ المنافقين كانت جراءتهم على الله تعالى ابتداءً، ومِنْ تأخير القول: ﴿ورسوله﴾ وكأنّ الّذين في قلوبهم مرضٌ كانت جراءتهم على الرّسول الكريم ﷺ ابتداءً.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢١ / ٨٤

(٢) تفسير الطّبرى ٢١ / ٨٦

(٣) سورة الكهف ٥

وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ
مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ
مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا
فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ
لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟
ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾
قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا
لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ
أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

يثرب: المدينة. ولم تصرف للعلميّة ووزن الفعل(١) وكره بعض العلماء تسميتها بذلك. وما وقع في القرآن من تسميتها به إنّما هو حكاية عن قول المنافقين. ووجه كرّاهة ذلك إمّا لأنّه مأخوذٌ من الثَّرَب - بالتّحريك - وهو الفساد، أو لكراهة التّثريب وهو المؤاخذة بالذّنب، أو تسميتها باسم كافر(٢)

لا مقام لكم: بضمّ الميم يعني لا إقامة لكم(٣) أو لا مكانَ إقامة(٤)

- عورة: غير حصينة يخشى عليها(٥)

---

(١) الجلالين وتفسير ابن كثير ٦/ ٣٨٩

(٢) وفاء الوفاء للسّمهودى ١/ ١٠ تحقيق محمّد محي الدّين عبدالحميد تصوير بيروت

(٣) تفسير الطّبرى ٢١/ ٨٦

(٤) البحر المحيط ٧/ ٢١٨ وانظر تفسير القرطبى ٥٢٣٠

(٥) الجلالين

إن يريدون إلاّ فرارا: ما يريدون إلاّ فراراً من القتال(١)

ولو دخلت عليهم من أقطارها: ولو دخلت المدينة على هؤلاء القائلين: ﴿إنّ بيوتنا عورة﴾ من جوانبها ونواحيها(٢)

ثمّ سئلوا الفتنة: ثمّ سئلوا الرّجوع من الإيمان إلى الشّرك(٣)

لآتوها: لأعطوها(٤)

وما تلبّثوا بها إلاّ يسيرا: وما احتبسوا عن إجابتهم إلى الشّرك. إلاّ يسيراً، قليلاً، ولأسرعوا إلى ذلك(٥)

وكان عهد الله مسئولا: فيسأل الله ذلك من أعطاه إيّاه مِنْ نفسه(٦)

وإذاً لا تمتّعون إلاّ قليلا: إلى آجالكم(٧)

إن أراد بكم سوءًا: في أنفسكم من قتلٍ أو بلاءٍ أو غير ذلك(٨)

أو أراد بكم رحمة: عافية وسلامة(٩)

وليّا: يليهم بالكفاية(١٠)

---

(١) الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/٢٤١

(٢) تفسير الطّبرى ٢١/٨٧

(٣) تفسير الطّبرى ٢١/٨٧

(٤) تفسير الطّبرى ٢١/٨٧

(٥) تفسير الطّبرى ٢١/٨٧

(٦) تفسير الطّبرى ٢١/٨٧

(٧) تفسير الطّبرى ٢١/٨٨

(٨) تفسير الطّبرى ٢١/٨٨

(٩) تفسير الطّبرى ٢١/٨٨

(١٠) تفسير الطّبرى ٢١/٨٨

واذكروا أيّها المؤمنون كذلك نعمة الله تعالى عليكم إذ قالت طائفةٌ من المنافقين يا أهل يثرب، ويلاحظ أنّ هذا الموضع هو الوحيد في القرآن الكريم الّذى يجيء فيه لفظ يثرب دليلاً على المدينة المنوّرة، وأنّ لفظ يثرب يجيء على لسان هؤلاء المنافقين. ومعروفٌ أنّ لفظ يثرب مرغوبٌ عنه أثَراً وعُرْفاً لعلاقته بالثَّرَب بمعنى الفساد، وبالتّثريب بمعنى اللّوم والمؤاخذة بالذّنب. وثمّة مجموعةٌ من الأسماء للمدينة المنوّرة مرغوبٌ فيها لجمال معانيها، ولكنّ المنافقين يتجاوزونها إلى لفظ يثرب دليلاً على تمكّن النّفاق منهم. وكأنّ هذا الفريق من المنافقين يوائم الفريق الأوّل من المنافقين في الآية الكريمة السّابقة ويجانسه في عمق النّفاق. وهذه الطّائفة من المنافقين تقول لأصحاب المصطفى ﷺ الّذين معه على جبهة القتال والّذين لا يفصل بينهم وبين المشركين سوى الخندق، يقولون للصّحابة رضوان الله تعالى عليهم، يا أهل يثرب لا مكان إقامةٍ لكم هنا على جبهة القتال وقد رماكم المشركون عن قوسٍ واحدة، فارجعوا إلى بيوتكم وأهلكم في يثرب، واتركوا محمّداً ﷺ ومن شاء أن يبقى معه في ميدان المعركة كي يلقى الجميع مصيرهم المحتوم وهو القتل واستئصال الشّأفة!

وثمّة فريقٌ آخر من المنافقين يقلّ سوءاً عن الفريق السّابق ذكره في الآية الكريمة، ويوائم في قلّة السّوء الفريق الآخر المذكور في الآية الكريمة السّابقة ويجانسه، ذلك الفريق الّذى وصف بمرض القلب. وبذلك تُقَدِّم الآيتان الكريمتان في الذّكر الفريق الأشدّ سوءاً. والفريق الآخر هنا هو الّذي جاء عنه القول: ﴿ويستأذن فريقٌ منهم النّبيّ يقولون إنّ بيوتنا عورةٌ وما هي بعورة. إن يريدون إلاّ فراراً﴾

إنّ هذا الفريق الأقلّ سوءاً يستأذن النّبيّ ﷺ في الانسحاب من ميدان القتال زاعمًا أنّ بيوته غير حصينة ولا تمتنع على السّارقين والأعداء. والله تعالى يبيّن أنّ تلك البيوت حصينة وليس كما يزعم المنافقون. وهم إنّما يريدون الفِرار من ميدان المعركة.

وإنّما كان الفريق السّابق أشدّ سوءاً لأنّه فرّ من ميدان المعركة فعلاً، وهو يريد من الآخرين أن يحذوا حذوه، وهو يقول لهم إنّ مكان إقامتكم ليس على الجبهة مع الرّسول ﷺ والمؤمنين، ولكن في الظّلّ الظّليل، والهواء العليل، والزّرع والنّخيل، والماء